المدارس النحوية

مدرسة البصرة: ماستر (١) لسانيات تطبيقية

حمل لواء النحو في البصرة تلاميذة أبي الأسود الدؤلي وجعلوا من النحو علمًا حقيقيًا قائمًا بذاته ونذكر من هؤلاء العلماء: يحيى بن يعمر وميمون الأقرع واسحاق الحضرمي وعيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وسيبويه والخليل بن أحمد وقد ركز هؤلاء النحاة على القياس واعتبروه مصدرًا مهمًا في بناء القاعدة النحوية. فقد اعتمدوا على كتاب الله والقراءات القرآنية واشترطوا القاعدة النحوية.

فقد كان هؤلاء اللغويون يعتمدون على السماع عن العرب ودونوا ما يسمعون أو ما يحفظون وذلك بالخروج إلى البوادي منها بادية نجد وتهامة والحجاز وما حاور البصرة منها بوادي الجزيرة العربية وما يفدون من تخومها خاصة من البلغاء والفصحاء، فجمعوا المسموع من الشعر والنثر وخاصة الكلام الشائع من الفصيح، وقاسوا عليه ثم استنبطوا القاعدة النحوية ومن بين هؤلاء الذين اتخذوا هذا النهج الخليل بن أحمد الفراهيدي في القرن الثاني الهجري وما بعده، وفي زمن الخليل شاع القياس وعدّه ركنًا أساسيًا في بناء القاعدة النحوية. فأما ما كان مسموعًا نادرًا أو قليلًا سموه ضرورة وما لم يقبلوه سموه شاذًا والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه، ولم يقيسوا عليه القواعد.

(ح)

- وضعوا القياس على الكلام المطرد من كلام العرب المسموع
وأول هذا المسموع "كلام الله" أي القرآن الذي لا يأتيه الباطل
من بين يديه أو من خلفه، وجعلوا هذه الأقيسة ثابتة
منذ زمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، واشترطوا في اللغات التي
نقاس عليها أن تكون فصيحة وعدوا لغة قريش هي اللغة
الأم والأصيلة والأكثر تداولاً وسماعاً وهي لغة القبائل الأصيلة
منها قريش وقيس وتميم وأسد وهذيل وكنانة وبعض
الطائيين. هذه اللغات لهؤلاء الأقوام اعتمدوا عليها
في دراسة الغريب والإعراب والتصريف

أما الشعر فقد اعتمدوا على الطبقات الثلاثة وهم الشعراء
الجاهليون والمخضرمون وطبقة العصر الإسلامي الأول أي صدر الإسلام
وكان علماء البصرة يحتجون في بناء القاعدة النحوية على هذه
الطبقات الثلاثة من الشعراء

- وقفوا من القرآن الكريم وقراءته موقف المدافع، وقاسوا
على آياته الكريمة أجازوا ما جاء في القراءات ولم يصدر
منهم طعن في القراءات.

أما الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف، فقد أجازوه بشرط
ألا يخالف ما ورد في كتاب الله وكلام العرب.

وكان من علماء البصرة الذين أسهموا في إرساء دعائم المدرسة
البصرية أبي اسحاق الحضرمي الذي مازج بين القياس

(ج)
والسماع وظهر بعده أبو عمرو بن العلاء وكان همه جمع أشعار العرب القدماء على منوال شيخه سيبويه الذين اهتموا بالعرب الجاهلي وعدوه المادة الاساسية في بناء القاعدة النحوية
فكان أبو اسحاق الحضرمي "ممثل القياس وكان ابن العلاء "ممثل السماع (والسماع والقياس) ولكنا نأساسيان عند علماء البصرة في استنباط القاعدة النحوية.
وتقدم النحو بشكل ملفت مع عيسى بن عمر ويونس بن حبيب غير أن بكل النحو لم ينضج إلا مع الخليل بن أحمد أستاذ سيبويه والمصدر الأول لذلك، فقد عمّ الخليل ما تركه السابقون من علماء اللغة عند البصريين حتى قال عنه ابن جني في كتابه الخصائص "الخليل بن أحمد الفراهيدي (كاشف قناع القياس)
وكان الخليل بن أحمد في السماع يلجأ الفصاحة، ويعزى له الفضل لإيجاد المصطلحات النحوية في النحو والصرف والمبتدأ والخبر واللازم والمتعدي كما ميّز بين المجرد والمزيد ووضع قانون الاعلال والابدال والعامل والمعمول.
لقد أصّل الخليل بن أحمد الفراهيدي النحو معتمدًا على السماع والتعليل والقياس وكان سماعًا ينقل عن القراء وتعليلاته كثيرة ومتعددة في كتاب تلميذه سيبويه مثل قوله
إنّ الأصل في الأسماء الاعراب وفي الحروف البناء

وقال أيضًا إنما بُنِيَ الاسم لمشابهته الحرف، وكان في قياسه يرصد المطرد من كلام العرب، وإذا لم يترك الخليل كتابًا جامعًا في النحو فإن تلاميذه قد اعتمدوا عليه في بناء أحكامه. وأن الكتاب لسيبويه كان جمعًا لآرائه

ولذا يُعدّ سيبويه أستاذًا في المذهب البصري وشاعت شهرته من خلال مؤلفه "الكتاب" حتى قال الحافظ عنه عندما فكرت في زيارة محمد بن عبد الملك الزيات فلم أجد ما أهديه له إلا كتاب سيبويه (الكتاب) الذي كان جامعًا للنحو والصرف.

وقال أبو عثمان المازني: "من أراد أن يعمل كتابًا كبيرًا في النحو بعد سيبويه فليستحي" وأكثر المصطلحات النحوية التي مازالت سائدة اليوم مصدرها الكتاب، وما جاء بعده إلا توضيحًا وشرحًا لذلك.

ويمكن القول أن البصرة كانت الموئل الذي نشأ فيه النحو علم النحو واضح علمًا قائمًا بأصوله وفروعه وقوانينه

ويرى الباحثون أن سبق البصرة في هذا الميدان هو قربها من ميناء نهري متفتح على الثقافات والأمم المجاورة التي قطعت أشواطًا في الرقي الفكري والعلمي

أما المنهج المتبع فكان يتلخص في جمع المادة اللغوية من منابعها الأصيلة أي من فصحاء العرب وذلك بالذهاب إلى البادية والاستماع إلى القاطنين من البدو الرحل قدموا البصرة لتعلم اللغة الفصحى.

وكان استقراء هذه المادة جمع الملاحظات التي تشكل مادة أساسية في وضع القواعد الأساسية للغة من خلال مصدريتي كلام العرب والقرآن الكريم

خصائص المدرسة البصرية

١- اعتمادها على السماع من أجل جمع المادة اللغوية عن طريق سكان البادية، وخاصة في البيئة الصافية والخالية من التأثر بالشعوب الأخرى المتاخمة

٢- إعتمادها على القياس كركن أساسي في بناء القاعدة النحوية

٣- الجمع بين السماع والقياس كعنصرين أساسيين في بناء القاعدة النحوية

٤- إعمال الفكر كمزية أساسية في رصد القاعدة النحوية والصرفية والخضوع لمقاييس العقل

مدرسة بغداد

انقسم النحاة إلى مدرستين هما البصرة والكوفة واتسعت مسائل الخلاف بينهما، ووقعت المناظرات وانتقل النحو مذهبيه إلى بغداد في القرن الرابع الهجري، وأن كثيرًا من علماء اللغة تتلمذوا على علماء المذهبين، فاجتمع هؤلاء النحاة وخرجوا بآراء جديدة تختلف عن الطرفين فشكلوا مذهبًا ثالثًا سموه مدرسة بغداد وعلى رأس هذه المدرسة أبو علي الفارسي الذي "مال إلى مدرسة البصرة ويقول هذا القول وهذه المسائلة لأصحابنا يعني مدرسة البصرة فكان مال إلى نحاة البصرة غير أنه استقل برأيه منتميًا إلى مدرسة بغداد ويرى شوقي ضيف في كتابه المدارس النحوية أن بعض علماء بغداد كانوا ينزعون نزعة الكوفة من أمثال ابن كيسان وابن الخياط، بينما كما قلنا ابن جني وأبو علي الفارسي ميلهما كان للبصرة.

وقد نشأ أثر كل من المبرد وثعلب أبو العباس المذهب الكوفي وألف ابن كيسان كتابًا سماه (كتاب الاختلاف البصريين والكوفيين).

ويمكن تلخيص خصائص هذه المدرسة على النحو الآتي

- أنهم أضافوا كي الناصبة إلا أن المضمرة بعد لام التعليل وأم أو الناصبة.

- وأن الأسماء الآتية معربة مثل "لا تضرب" وهي ممنوعة من الصرف للعلمية والعدل بينهما

لقد كان ابن كيسان مؤسس مدرسة بغداد حيث أنه تعلم المسائل النحوية عند المدرستين واختار ما يراه مناسبا وأضاف إلى ذلك آراء من اجتهاده

نزعت مدرسة بغداد نزعة بصرية خالصة حتى اعتبر أبو علي الفارسي وابن كيسان جزءا لا يتجزأ منها.

- قام أبو علي الفارسي بضبط الأصول وضبط القياس والعلل

- له آراء تؤيد البصريين تارة والكوفيين تارة أخرى غير أنه يعتمد على التحليل وإعمال الفكر مما ميزه عن غيره.

وجاء ببعض الآراء خالف فيها المدرستين مثل قوله: إن العامل في المعطوف فعل محذوف بعد أداة العطف مثل: أخذت الكتاب والقلم فإن الأصل أخذت الكتاب وأخذت القلم. وهو

ويرى ابن كيسان أن حرف العطف هو العامل

كما يرى أن أدوات النداء ليست حروفا بل هي أسماء أفعال وأن المنادى شبيه بالمفعول به. ويرى كذلك أن الأسماء الخمسة معربة. كما ذهب أبو علي الفارسي إلى أن الجار والمجرور أو الظرف هما الخبر.

ومن آراء ابن جني الذي خالف الآراء المدرستين ويوافق ابن علي الفارسي تجيز تقديم المفعول معه على المفعول قبله مثل: جاء وثياب الصوف البرد.

- اهتماماته بنشأة اللغات والاشتقاق وأن كثيرا من الأفعال مصدرها الصيغة

مدرسة الكوفة

إذا كانت مدرسة البصرة منشغلة بأصول النحو وفروعه وقواعده وتشعباته، فإن مدرسة الكوفة كانت منشغلة بأصول الفقه والفتاوى والروايات، وكانت الكوفة متأخرة عن البصرة في رعاية النحو وقواعده لاعتبارات عدة منها وجودها في منطقة تأثر بالثقافات الأخرى وخاصة الثقافة الفارسية التي كانت العنصر المحرك في بناء الفلسفة العقلية وإعمال الفكر وحتى القياس والسماع. ولهذا تأثرت المدرسة الكوفية بالمدرسة البصرية في إرساء دعائم النحو والصرف، ومن سماتها

- إرسال وفود من علماء الكوفة إلى البصرة من أجل الدراسة ثم عودتهم إلى الكوفة لإلقاء دروسهم وكان من بين هؤلاء الرؤاسي والهراء اللذين جادلا البصريين في بعض المسائل النحوية، ويرى الباحثون أن الأخفش الأوسط روى عنه الكسائي كتاب سيبويه وتصدرا الكسائي والفراء الخلاف مع الخليل وسيبويه حول مسائل نحوية.

- ومن أهم ما اختص به الكوفيون:

- اتساع الكوفيين في الرواية والقياس حيث كانوا يقبلون الروايات عن الضحاك حتى من غير العرب لبناء قواعدهم النحوية بل وحتى الخضر على خلاف البصريين

- فسحوا المجال للشاذ والنادر من الأقوال (الاشعار والنثر) من أجل بناء أفكارهم.
- فسح المجال أمام القراءات في القرآن الكريم وجعلوا ذلك أصلاً يقيسون عليه
- ظهرت عند القضايا المسائل النحوية الفرعية معتمدين عليها، فالكوفيون إذا سمعوا نادراً من كلام العرب شعراً ونثراً جعلوه باباً أو فصلاً في قبول الرواية
- توسعوا في القياس دون سماع على خلاف البصريين
- عمدوا إلى تغيير المصطلحات النحوية التي وضعها البصريون مثل: تسمية ضمير الفصل بالعماد، وضمير الشأن بالكناية وقد احتوى كتاب الانصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري أهم الخلافات الواردة بين المدرستين
وأشهر علماء الكوفة: الكسائي الذي أسس المذهب الكوفي معتمداً على الاتساع في الرواية وفي القياس وفي مخالفة البصريين ومنهم أيضاً الفراء تلميذ الكسائي وهو من أصل فارسي وقد أرسى دعائم المذهب الكوفي من خلال اعتماده على الأصول التي وضعها الكسائي. وحقيقة هذا المذهب تقوم بالأساس على مخالفة مدرسة البصرة في المسائل الآتية
- عدم التفرقة بين الاعراب والبناء.
- أن المصدر مشتق من الفعل

③ المسألة الثالثة

- إعراب الأفعال أصل فيها كالأسماء

- المسألة الرابعة: تقسيم الفعل إلى ماضي ومضارع وأمر على خلاف المدرسة البصرية إلى ماض ومضارع وأمر

ومن أعلام مدرسة الكوفة: أبو العباس ثعلب توفي سنة ٢٩١هـ. وقد اعتمد في بناء القاعدة النحوية على أسماء له من الفراء والكسائي من خلال السماع.

ابن الأنباري يعد من أعلام المذهب الكوفي البارزين وهو تلميذ أبي العباس ثعلب أبى بشاطر هذا الأخير من اعتبار المصدر أصل الفعل وأن الفعل مأخوذ من المصدر مثل ضربَ زيدٌ ضربًا وخرج خروجًا وقعد قعودًا. وأن المصادر توكيد للأفعال والتوكيد يتبع المؤكد. ولابن الأنباري آراء أخرى مختلفة منها أن (إن وأخواتها) قد ترد أسماء ويقال مثل انصرفت من إليك وغدوت من عليك: ولم يبق الخلاف بين المدرستين عند هذا الحد بل اتسع وكان من ثمرته ظهور مؤلفات كثيرة خدمت اللغة العربية وأصلت الدراسات النحوية وأصبحت لاحقًا علمًا قائمًا بذاته